الادب والحياة

حديث لرابندرانات طاغور

مع كاتب انكليزي — خاص بالمقتطف

— ١ —

ليس باليسير ان توصف العظمة حقّ وصفها !

يقف الانسان وقفة روعةٍ وتهيّبٍ امام مشهد غروب الشمس او عنان جبل ذاهب في الفضاء او سهل فسيح يغمره الثلج. فاذا حاول ان يصف شعوره عجزت عن ذلك الالفاظ

هذا هو الشعور الذي يملك على الانسان عقلهُ ونفسهُ في مجلس شخصية فذة. اننا نحسُّ بمعاني القوة تنطلق منها حتى نكاد نلمسها فاذا حاولنا وصفها وتحليلها إنما بالفشل. وكثيراً ما يكون هذا الشعور مقلقاً هدّاماً لكرامتنا النفسية اذ يجعلنا نحسّ بضعفنا وعجزنا. على انهُ يضرب حولنا احياناً نطاقاً من الطمأنينة والسلام، ويبعث في نفوسنا شعوراً بالجمال وتقديراً للذة، اذ نحسُّ بأن ضعفنا بالغاً ما بلغ ازاء هذه الشخصية الطاغية علينا بقوتها، لا يمنعنا عن السمو بميولنا الى الاعالي

وعظمة السر رابندرانات طاغور، الشاعر والمعلم والفيلسوف الهندي، من هذا القبيل انك تشعر بكون الكون في مشيته الوقورة. انك ترى روعة الزمن وقد جرّد من عنوم في خصله الفضيّة وفي قسمات وجهه التي نحتها منحوتة في العاج. انك تسمع موسيقى الاجرام في غنة صوته الموسيقي. انك تثق بأن الثقافة لا تعرف حدوداً من الوطن والجنس اذ تصغي الى حديثه الانكليزي الفصيح وتملي من معرفته الوافية بأدب غير ادب قومه وفن غير فنهم وحضارة غريبة عن حضارتهم

— ٢ —

قال: كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي تتم بنعمة الخلود؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل وأحوال مهدت لهُ السبيل في عصور سابقة، وهو بدوره يمهد السبيل لبيان جديد في عصر تالٍ. فلا بدَّ لنا من موضع للنظر المشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصاح عن نفسيته. والمسافة في الزمان والمكان

لامندوحة عنها لهذا الحكم لان القرب يحير البصر لكثرة ما يراه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل وتتعذر رؤية الكل كلاً لا اجزاء من كلّ

سألني كثيرون عن احب الشعراء اليَّ وأي رجل اعظم الرجال في نظري . انا لا نستطيع ان نحصر التفوق في شخص واحد لكثرة المتفوقين. تتقيت علوي في العصر الفكتوري فأنا اجيد لغتهُ وأفهم ادبه ولكنني لا استطيع ان افهم تعبيرات الأدباء المحدثين. قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها اشعار شلي وكيتس[1] ولكنني لا افهمها

ان لغة كل امة كالامة ذاتها . فاما ان تتقدم واما ان تموت . انها لا تستطيع ان تجمد في مكانها . فالانكليز لا يتكلمون بلغة تشوسر[2] الآن . ولو اتيح لتشوسر ان يطلع على اسلوب الكتابة في العصر الاليصاباتي — عصر شكسبير وفرنسيس باكون — لحسبهُ رطانة محدثة . هكذا ينظر ادباء العصر الفكتوري الى اساليب الادب الحديثة

وفي لغة كل شعب تتردد اصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري في الريف والطمأنينة في البعد عن المدن . ونحن الآن في غمار عهد لطين السندان واصطخاب الآلات اعظم شأن . فالنغمات المتسقة الثانية التي كنا ننشدها في امسنا الغابر قد انقضى عهدها وحلت محلها العبارات المقتضبة والشعر المطلق في يومنا هذا القليق المضطرب . وليس هذا بالامر الذي يؤسف له. فكل فترة يزكو فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحة تخلد فيها النفس الى السكينة لتستجم قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصفت اساليبها بالعنف وبالرجوع الى السذاجة مستوحية دوافع البشر الاولية في الخلق والابداع

***

ان الثقافة الحقيقية لا تعرف حدوداً من البلدان والاجناس. فهي تحيط بالارض كالجوّ. وكما تقع في الجوّ على مناطق مختلفة من حرارة ورطوبة ولكنها على اختلافها متصلة الاطراف تقع كذلك في الثقافة على مناطق متصلة رغم اختلافها . فالشرق والغرب على اختلافهما متصلان حتى ليفنى احدهما في الآخر في بعض النواحي . لأن العالم لا يعرف الآفاق الضيقة

فالشرق تغلب عليه الطمأنينة يحاط الادراك العميق الذي يؤمن بأن الزمن هو الكاشف العظيم والغرب وثاب متحمس يدفعهُ عنف الشباب

على ان كلا الشرق والغرب باحثان وجوهر الثقافة والجمال الذي يبحثان عنهُ واحد

(١) شلي وكيتس شاعران انكليزيان من اكبر شعراء القرن التاسع عشر
(٢) شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

الغرب : يقيم الحدود بين الطبيعة والطبيعة البشرية
والشرق : يؤمن بالوحدة الاساسية في كل الخليقة
الغرب : كعالم يشرح الطبيعة
والشرق : كفيلسوف يسلم بها
الغرب : يرى بعيون الشباب الوثاب ، عيون المادة
والشرق : يتأمل بعيون الروح التي لا يدركها الهرم
ومع ذلك فالذي يشاهدانه واحد — وهو الوحدة الخالدة — وحدة الانسان والعالم الذي يعيش فيه

***

كلما تقدمنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع ان ننظر الى الاشياء نظراً مشارفاً نتفهم عللها . فيحسنا ذلك على تفضيل ايام حداثتنا الزاهية على ايام كهولتنا او شيخوختنا التي نناني اعباءها فنشير الى ايام الشباب متحسرين — كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع ان الحال لم تكن كذلك والايام الماضية لا تفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا من رؤية اثرها رؤية مجملة شاملة . وهذا ما لا نستطيع ان نفعله في ايامنا هذه لاننا ما زلنا فيها . ان رسم الحائك لا يرى الا متى تمت حياكة الثوب

ويغلب ان تكون الشهرة نتيجة الفرصة السانحة وكثيراً ما تشبهها في مداها !

قد يكتب احد الشعراء نشيداً وطنياً في اثناء نشوب حرب طاحنة فيعصف بالجمهور كعاصف لان الجمهور يرى في سطوره وتراتيله صوراً للشعور الذي يجول في صدور افراده . فيحكم على ناظمه بالنبوغ والتفوق ويرفعه على الاكتاف وتصبح كلماته تتردد في كل نادٍ وتسمع انغامه الحماسية في وقع الاقدام العسكرية !

ثم تضع الحرب اوزارها ويمتد رواق السلام فينجب شاعر جديد ينشد افراح الطمأنينة ومسرات السكينة فهب نسيمها اللطيف على صدور اكتسحتها من قبل العاصفة في الحرب ، تُنسى الموسيقى العسكرية التي وضعها الاول ويتاح لمنظر جديد ان يرتفع فوق اكتاف الجماهير الى ذرى الشهرة . ولكن ما اقلّ الذين يتاح لهم ان يكون نصيبهم الفهم والتقدير من ابناء جيلهم وابناء الاجيال التالية . ومع ان الغرب يمدّ ايدي الجشع نرى الشرق قابعاً قانعاً منتظراً تحقيق غرضه — وغرضهما معاً انما هو — الحق !

— ٣ —

قال الكاتب : ولما غادرت دار طاغور ادركت انني في حديثي معه تكلمت مع من يعلم